٣
المُسْلِمُ مَعَ وَالِدَيْهِ

بَرٌّ بهما:

إن من أبرز صفات المسلم الحق البرّ بالوالدين والإحسان إليهما؛ ذلك أن البرّ بالوالدين أمرٌ من أجلّ الأمور التي حضّ عليها الإسلام، وأكّدتها نصوصه القاطعة الحاسمة. والمسلم الواعي المتمثّل هذه النصوص الوفيرة التي استفاضت في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وكلها يدعو إلى البرّ بالوالدين وحسن مصاحبتهما، لا يسعه إلّا أن يكون البرّ بالوالدين سجيّة من ألزم سجاياه، وخليقة من أبرز خلائقه.

عارِفٌ قَدْرَهُما وما يَجِبُ عَلَيهِ نَحْوَهُما:

لقد رفع الإسلام مقام الوالدين إلى مرتبة لم تعرفها الإنسانية في غير هذا الدين؛ إذ جعل الإحسان إليهما والبرّ بهما في مرتبة تلي مرتبة الإيمان بالله والعبودية له.

فقد جاءت آيات الله تترى متضافرة متعاقبة تضع مرضاة الوالدين بعد مرضاة الله، وتعدّ الإحسان إليهما فضيلة إنسانية تلي فضيلة الإيمان به:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1].

---

(١) النساء: ٣٦.

ومن هنا كان المسلم الصادق الواعي أبرَّ بوالديه من أي إنسان في الوجود.

ويسمو القرآن الكريم في تصوير مكانة الوالدين، وبسط الأسلوب الخلقي الراقي الذي ينبغي للمسلم أن يتبعه في معاملة والديه، إنْ تنفّس بهما أو بأحدهما العمر، وبلغا مرحلة الهرم والشيخوخة والعجز، فيصل إلى الغاية التي ما عرفتها الإنسانية قبل أن تسطع شمس هذا الدين على الأرض:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1].

إنه الأمر الرباني الخالد للمسلم في صورة قضاء حتمي، لا فكاكَ منه ولا معدِلَ عنه: ﴿وقَضَى رَبُّكَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاهُ وبالْوالِدَيْنِ إحْساناً﴾، وإنه لَلرَّبْطُ المحكَمُ بين عبادة الله وبرّ الوالدين، وفي ذلك رفعٌ لقيمة الوالدين وإعلاءٌ لشأنهما إلى حد لم يستطع الحكماءُ والمصلحون وعلماء الأخلاق بلوغَ شأوه في يوم من الأيام.

ولا يكتفي سياق الآية برسم هذه الصورة الوضيئة السامية لبر الوالدين، بل يستجيش وجدان الرحمة والعطف والبرّ في نفوس الأبناء في تعبير وجداني رقيق وَدود، يقطر رقّة وسَلاسة وأُنْساً: ﴿إمّا يَبْلُغَنَّ عندَكَ الكِبَرَ أحَدُهُمَا أو كِلاهُمَا﴾، فهما إذاً (عندكَ) في رعايتك وحمايتك وحفظك، وقد يكونان شيخين هرمين ضعيفين، فحَذارِ حَذارِ أن تندّ منك كلمةُ تذمّرٍ أو تململ أو ضيق: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا﴾، بل يجب عليك أن تفكّر طويلاً في الكلمة الطيبة توجهها إليهما ليطيبا بها نفساً، ويقرّا عيناً: ﴿وقُلْ

---

(١) الإسراء: ٢٣.

لهما قَوْلاً كَريماً﴾، ولتكن وقفتك بين أيديهما وِقْفَة الاحترام البالغ والتقدير المتناهي، الشبيه بِوِقْفَة التذلّل والاستسلام والخضوع: **﴿واخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾**، ولْيَنْطَلِقْ لسانُك لاهجاً بالدعاء لهما على ما أسديا لَكَ من يد لا تُنْسَى، إذ رَبّياك صغيراً قاصراً ضعيفاً: **﴿وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّياني صَغيراً﴾**.

والمسلم المفتوح القلب، المنوَّر البصيرة، يتلقّى دوماً مثل هذا الإيقاع الرباني الجميل في عدد من آيات الله البينات، فيزداد لوالديه احتراماً، وبهما بِرًّا:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾[2].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[3].

والباحث المتأمل في النصوص الواردة في بِرّ الوالدين، يجد الأحاديث الشريفة تترى مواكبة الآيات الكريمة، مؤكدة فضل بِرّ الوالدين، محذّرة من عقوقهما أو الإساءة إليهما مهما تكن الأسباب:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى اللَّهِ؟ قالَ: «الصَّلاةُ على وَقْتِها»، قلتُ: ثُمّ أيّ؟ قالَ: «بِرُّ الوالِدَيْنِ»، قلتُ: ثُمّ أيّ؟ قالَ: «الجِهادُ في سبيلِ اللَّهِ»[4].

لقد جعل الرسولُ المربّي العظيم بِرَّ الوالدين بين أعظم عملين في

---

(١) النساء: ٣٦.

(٢) العنكبوت: ٨.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) متفق عليه.

الإسلام: الصلاة على وقتها، والجهاد في سبيل الله. والصلاة عماد الدين، والجهاد ذروة سنام الإسلام. فأيّ مقام كريم جليل أحلّ الرسولُ الوالِدَيْن؟!.

ويأتي الرسولَ الكريمَ رجلٌ يبايعه على الهجرة والجهاد يبتغي الأجر من الله تعالى، فيتريث في قبوله، ويسأله: «فهَلْ مِنْ والِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟»، فيقولُ الرجلُ: نَعَمْ، بَلْ كِلاهُمَا، فيقول الرسول الكريم: «فَتَبْتَغي الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعالَى؟»، فيجيبُه الرجلُ: نعَمْ، فيقول الرسولُ البَرُّ الرحيم: «فَارْجِعْ إلى والِدَيْكَ فأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»[1].

وفي رواية للشيخين: جاء رجل فاستأذن الرسول ﷺ في الجهاد، فقال: «أَحَيٌّ والِداكَ؟» قال: نعم، قال: «فَفِيهِما فَجاهِدْ».

لم يفت الرسول القائد، وهو يعبّىء كتائب الجَيش للجهاد، أن يذكر بقلبه الإنساني الرقيق ضعف الوالدين وحاجتهما لابنهما، فيصرف هذا المتطوع للجهاد عن التطوع، ويلفته برفق إلى العناية بوالديه، وإنه لفي حاجة إلى كل ساعد يضرب بالسيف آنذاك، تقديراً منه ﷺ لخطورة البِرّ بالوالدين وحسن القيام على شؤونهما في منهج الإسلام الكامل المتوازن الفريد الذي رسمه الله لسعادة الإنسان.

ولما أنكرت أم سعد بن أبي وقّاص عليه إسلامه، وقالت له: إما أن ترجع عن إسلامك وإما أن أضرب عن الطعام حتى أموت، فتكسب معرّة العرب، إذ سيقولون: قاتل أمه، أجابها سعد: تعلّمين والله لو كان لك مئة نفس، وخرَجَتْ نفساً نفساً ما رجعتُ عن إسلامي. وصبَرت أمه يوماً فيومين، وفي اليوم الثالث أجهدها الجوع فطعمتْ، وأنزل الله تعالى قرآناً تلاه الرسول على المسلمين فيه عتاب لسعد على شدّته مع أمه في جوابه لها:

---

(١) متفق عليه.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[1].

وفي قصة جُرَيْج العابد عبرةٌ بالغة في أهمية برّ الوالدين والمسارعة في طاعتهما، إذ نادته أمه وهو يصلي، فقال: ربِّ، أمي أم صلاتي؟ واختار صلاته. ونادته ثانية، فلم يجبها وبقي في صلاته، ونادته ثالثة، فلما لم يجبها دعت عليه ألا يميته الله حتى يريه وجوه المُومِسات. وزنت مومسٌ براعٍ فحملت منه. فلما خشيت انفضاح أمرها قال لها الراعي: إن سُئِلْتِ عن أبي المولود فقولي: جُرَيْج العابد، فقالت. وهبّ الناس يخرّبون صومعة جريج، واقتاده الحاكم للساحة، فبينما هو في الطريق تذكّر دعاء أمه فتبسّم. ولما قُدِّم للعقاب استمهل حتى يصلّي ركعتين، ثم طلب الغلام وهمس بِأُذُنِهِ: مَنْ أبوك؟ فقال: أبي فلان الراعي[2]، فهلّل الناس وكبّروا وقالوا: نعيد بناء صومعتك فضة وذهباً، فقال: لا، بل أعيدوها كما كانت من تراب وطين. وفي هذا الحديث الذي رواه البخاري يقول النبي ﷺ: لو كان جُرَيْج فقيهاً لَعَلِمَ أن إجابته والدتَه ألزمُ من استرساله في صلاته. ومن هنا رأى الفقهاء أن المرء إذا كان في صلاة النفل، وناداه أحد والديه فعليه أن يقطع صلاته ويجيبه.

بَرٌّ بِهِمَا وَلَوْ كَانَا غَيْرَ مُسْلِمَيْنِ:

ويسمو نبيّ الإسلام العظيم بتوجيهاته الكريمة إلى ذروة الإنسانية إذ يوصي ببرّ الوالدين والإحسان إليهما، ولو كانا على غير دين الإسلام، وذلك فيما حدثتنا به أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قالت: قَدِمَتْ عليَّ أُمّي، وهي مشركةٌ في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ،

---

(١) لقمان: ١٥.

(٢) هذا الغلام أحد الثلاثة الذين نطقوا في المهد، والآخران عيسى بن مريم، والغلام الذي كان مع أمه في أهل الأخدود.

قلتُ: قَـدِمَتْ عليَّ أُمّي وهيَ راغِبـةٌ[١]، أَفَـأَصِـلُ أمّي؟ قـالَ: «نعمْ صِلِي أُمَّكِ»[٢].

إن المسلم الحق الـواعي هذه التـوجيهات القـرآنيةَ العـاليـةَ، واللَّفَتـاتِ النبـويةَ السـامقةَ، لا يسعـه إلاّ أن يكون من أبـرّ خلق الله بوالـديـه، وأحسنهم عشرة لهما، في كل حال وفي كل آن، وهذا ما كان عليه الصحابـة ومَنْ تبعهم بإحسان؛ فقد سأل رجـل سعيد بن المسيَّب رضي الله عنـه قائِـلاً: لقد فهمت آية بر الوالدين كلها إلاّ قوله تعالى: ﴿وقُلْ لهُما قَـوْلاً كريمـاً﴾، فكيف يكون القول الكريم؟ فأجابه سعيد: يعني خاطِبْهُما كما يخاطِبُ العَبْـدُ سَيِّدَهُ. وكـان ابن سيرين (رضي الله عنه) يكلّم والدته بصـوت ضعيف، كأنـه صوت مـريض إجلالاً لها واحتراماً.

كَثِيرُ الخَوْفِ مِنْ عُقُوقِهِمَا:

ونحن إذا غـادرنا هـذه الصفحة المشـرقـة الـوضيئـة من التحبيب بـالبـرّ بالوالدين، وأدرنا الطرف بالصفحة المقابلة في التحذير من عقـوقهما، رأينـاها صفحة سوداء معتمة قاسية، تقرع قلب الـولد العـاق الصلد، وتهز ضميـره من الأعماق.

إنها لَتَجْبَهُ كلَّ عاقّ لوالديه باقتـران العقوق بـالإشراك بـالله، كما اقتـرن البرّ بهما هناك بالإيمان بالله، فإذا العقوق جريمة سوداء بشعة قاتمة، ينهلع لها لبّ المسلم الصادق، ويطير لها صـوابه. إنهـا أكبر الكبـائر، وأفـدح الخطايـا والذنوب:

عن أبـي بَكْـرَة نُفَيْع بن الحـارث قال: قـال رسول الله ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُمْ

---

(١) أي طامعة فيما عندي تسألني شيئاً.

(٢) متفق عليه.

بأكْبَرِ الكَبائِرِ؟» ثلاثاً. قُلْنا: بَلى يا رسولَ اللَّهِ، قالَ: «الإشْراكُ بالله، وعُقوقُ الوالِدَيْنِ»[1].

يَبَرُّ أُمَّهُ ثُمَّ أَبَاهُ:

ولكيلا يختلّ التوازن عند الأبناء في برّ أحد الوالدين على حساب الآخر، جاءت توجيهات الإسلام تشمل الوالدين كليهما، وتخصّ كلاً من الأم والأب على انفراد.

فهذا رسول الله ﷺ يسأل الرجل الذي جاءه مبايعاً على الجهاد كما رأينا آنفاً: «فَهَلْ مِنْ والِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟»، وهذا تقرير من الرسول الكريم بوجوب البِرّ لكلا الوالدين على السواء.

ورأينا أيضاً في حديث أسماء أنه أمرها بصلة أمها المشركة. وجاءه رجل فسأله: يا رسول الله، مَنْ أَحَقُّ النّاسِ بِحُسْنِ صَحابتي؟ فأجابَهُ الرسولُ الكريمُ: «أُمُّكَ». قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أُمُّكَ». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ». قال: ثم مَنْ؟ قال: «أَبُوكَ»[2].

ففي هذا الحديث تأكيد من الرسول الكريم على أن برّ الأم مقدَّم على برّ الأب، وكان الصحابة الكرام يؤكدون للمسلمين هذا المعنى بعد رسول الله ﷺ، حتى إن ابن عباس رضي الله عنه، حَبْرَ الأمّة وفقيهَها، جعل برّ الوالدة أقرب الأعمال إلى الله؛ فقد جاءه رجل فقال: إني خطبت امرأة فأبت أن تَنْكِحَني، وخطبها غيري فأحبّتْ أن تَنْكِحَهُ، فغِرْتُ عليها، فقتلتُها، فهل لي من توبة؟ قال: أُمُّك حية؟ قال: لا. قال: تب إلى الله عزّ وجل، وتقرّبْ إليه ما استطعتَ. قال عطاء بن يسار راوي هذا الحديث عن

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

ابن عباس: فذهبتُ، فسألتُ ابن عباس: لِمَ سألتَه عن حياة أمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقربَ إلى الله عزّ وجل من برّ الوالدة[١].

ولهذا رأينا الإمام البخاري في كتابه (الأدب المفرد) الذي صدّره بباب برّ الوالدين يقدّم باب برّ الأم على باب برّ الأب، محقّقاً بذلك التناسق والانسجام بين تبويبه هذا وما تضمن من هَدْي نبوي كريم.

ولقد استثار القرآن مشاعر البرّ والعرفان في نفوس الأبناء، فوصّى بالوالدين، ونوّه بفضل الأم في الحمل والرضاعة، وما تكابد من مشاق ومتاعب في هاتين المرحلتين من مراحل الحياة في صورة لطيفة حانية، توحي بالبذل النبيل، والحنوّ المطلق، والانعطاف الرقيق:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ[٢] وَفِصَٰلُهُۥ[٣] فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤].

فيا لَلتربية العليا! ويا للتوجيه الإنساني الرحيم! ﴿أَنِ اشكُرْ لي ولِوالِدَيْكَ﴾. فشكر الوالدين على ما أسْديا للولد من خير يلي شكر الله عزّ وجل، رأس الفضائل والأعمال الصالحات. ويا لَلمنزلة الكريمة العليا التي أحلّها هذا الدينُ الوالدين!.

وقد تقبل الدنيا على الولد، وتدرّ عليه أخلاف الرزق، فتمتلىء خزائنه بالمال، وتشغله الزوجة الحسناء والفراخ الزغب، فينصرف عن العناية بوالديه، وينسى أباه وما أنفق في سبيله من مال، فيمسك يده عنه، فيبوء بغضب من الله.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.
(٢) أي ضعفاً على ضعف.
(٣) أي فطامه.
(٤) لقمان: ١٤.

ولكن المسلم الحق الصادق في نجوة من هذا كله، لأنه على اتصال دائم بالنبع الكريم الثَّرّ من توجيهات الإسلام العالية الحكيمة المسدَّدة. إنه ليسمع هتاف الرسول ﷺ به:

«أَنْتَ ومالُكَ لِأَبيكَ»(١).

فيهتزّ لهذا الأدب النبوي كيانه، وتتفتّح لفيوض الهداية نفسه، فإذا هي تفيض بالبِرّ والرعاية والحب والعطاء، وإذا هو في منجاة من العقوق وعصمة، وإذا هو حقاً كما أراد له رسول الإسلام أن يكون: هو وماله لأبيه.

يَبَرّ أهلَ وُدِّهما:

ولم تقتصر توجيهات هذا الدين الحنيف على برّ الوالد، بل تعدتها إلى مَن يحبّ ويصفي الودّ. فعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«أَبَرُّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبيهِ». وفي رواية: «إِنَّ مِنْ أَبرِّ البِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ وُدَّ أَبيه بَعدَ أَنْ يُوَلّي»(٢).

وصادف عبد الله بن عمر رضي الله عنه صديقاً لوالده عمر رضي الله

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه بإسناد حسن. ونص الحديث: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً، وإن والدي يريد أن يجتاح مالي، فقال: «أنت ومالك لأبيك، إن أولادكم من أطيب كسبكم، فكلوا من كسب أولادكم». وفي رواية الإمام أحمد: «فكلوه هنيئاً». وقد علّق الإمام الخطابي على هذا الحديث بقوله: «معنى يجتاح مالي: يستأصله فيأتي عليه، ويشبه أن يكون ما ذكره السائل من اجتياح والده مالَه، إنما هو بسبب النفقة عليه، وأن مقدار ما يحتاج إليه للنفقة عليه شيء كثير لا يسعه عفو ماله والفضل منه، إلّا أن يجتاح أصله ويأتي عليه، فلم يعذره النبي ﷺ، ولم يرخص له في ترك النفقة، وقال له: «أنت ومالك لأبيك» على معنى أنه إذا احتاج إلى مالك أخذ منك قدر الحاجة كما يأخذ من مال نفسه، وإذا لم يكن لك مال، وكان لك كسب، لزمك أن تكسب وتنفق عليه».

(٢) رواه مسلم.

عنه، فبالغ في برّه وإكرامه، فقال له بعض مَنْ معه: أما كان يكفيه أن تتصدّق عليه بدرهمين؟ فقال ابن عمر: قال النبي ﷺ:

«اِحْفَظْ وُدَّ أبيكَ، لا تَقْطَعْهُ فَيُطْفِىءَ اللَّهُ نُورَكَ»(١).

وسَأَلَ رَجُلٌ النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ بعدَ مَوْتِهما أَبَرُّهما؟ قالَ: «نَعَمْ، خِصالٌ أَرْبَعٌ: الدُّعاءُ لَهُما، والاستِغْفارُ لهما، وإنْفاذُ عَهْدِهما، وإكرامُ صَدِيقِهما، وصِلَةُ الرَّحِمِ التي لا رَحِمَ لكَ إلّا مِنْ قِبَلِهما»(٢).

إنها لأَعْلى مراتب الحب والوفاء والبرّ والإجلال للوالدين أن يَصِلَ الولدُ أصدقاءهما في حياتهما وبعد مماتهما. والمسلم الحق الصادق يوطّد دوماً أواصر المودّة والصلة والصداقة بأهل ودّهما، ويبقى على حبه لهم وإجلاله إياهم بعد أن يلقى والداه وجه ربهما، فلا ينسى ذلك الودّ القديم، ولا يغفل عن تلك الوشيجة الإنسانية النبيلة التي أحكم نسجَها والداه الحبيبان. وبمثل هذه المشاعر الإنسانية العالية، وذلك الود النبيل الخالص تجمل الحياة، ويهنأ الأحياء. وهذا كله منوط بوجود المسلم الصادق في هذه الحياة.

إن الولد في الغرب لَينفصلُ عن والديه متى بلغ سنّ الرشد، وتنفصل معه آصرة البنوّة. فلا لقاء ولا رحمة ولا تعاطف مع أب أو أم. يسير الولد في طريقه، فلا يكاد يلتفت إلى الوراء يلقي نظرة ودّ ووفاء وإحسان إلى الجيل المضحّي المدبر المردود إلى أرذل العمر، بعدما سكب عصارة عمره وقدم رحيق حياته لأبنائه المتفتحين للحياة. فأين هذا العقوق والجفاء والجفاف من الولد لوالديه في الغرب، من ذلك البرّ والمودّة والوفاء والريّ العاطفي المتدفق من ابن الإسلام البار نحو والديه في حياتهما وبعد مماتهما، متّصلاً بأهل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

ودّهما؟! ألا إنه الإسلام ومنهجه المتميّز الفريد في صياغة النفوس وتقرير الأواصر الإنسانية النبيلة السامية التي ما وصل إليها نظام، ولا بلغ شأوها تشريع.

أُسْلُوبُهُ في بِرِّه لَهُما:

إن المسلم الذي صاغه الإسلام بحق إنسان بارّ بوالديه، يحيطهما بأجمل مظاهر الاحترام والتقدير، يقوم لهما إذا قدما على مجلسه، وينكبّ على أيديهما لثماً وتقبيلاً، يغضّ من صوته أمامهما تأدّباً منه وإجلالاً لهما، ويخفض لهما من جناحه، وينتقي العبارات المهذّبة اللطيفة في حديثه معهما، فلا يجري على لسانه معهما لفظٌ نابٍ أو عبارة خشنة جارحة، ولا يبدو منه في تعامله معهما فعلٌ عارٍ عن أدب التوقير والتكريم والإجلال، مهما تكن الظروف والأحوال، مستهدياً دوماً بقوله تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1].

وقد يكون الوالدان منحرفين عن جادة الصواب، حائدين عن طريق الحق، فواجب الولد المسلم البارّ في مثل هذه الحالة أن يتأتّى إليهما برفق وتُؤَدَة ولباقة وسماحة، ليزحزحهما عن الباطل الذي يتمسكان به، لا يشتد، ولا يغلظ، ولا يقسو، ولا ينهر، بل يحاول إقناعهما بذكاء وتلطّف، حتى يلفتهما إلى الحق الذي يؤمن به، وسلاحه في هذا كلّه الحجة القوية، والمنطق السليم، والأسلوب المهذّب الحكيم.

---

(١) الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

ولا ينسى المسلم الواعي الحصيف أنه مطالب بهذا الأسلوب مع والديه حتى لو كانا مشركَيْن. إنه مطالب حتى في حالة شركهما أن يحسن معاشرتهما، وإنه ليعلمُ أن الشرك أكبر الكبائر. إنه ليمتثل في ذلك أمر الله جل وعلا إذ يقول:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

إن الوالدين لأقربُ الأقرباء، وأحبُّ الأحباب، ولكن رابطتهما ــ على جلالة قدرهما ــ تأتي بعد رابطة العقيدة، فإن كانا مشركَيْن وأمرا ابنهما بالشرك، فلا طاعة لهما عليه؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإذ تعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة، ويسمو أمرها على كل أمر، ولكن الولد يبقى ملزماً ببرّهما ورعايتهما والإحسان إليهما.

ومن هنا كان المسلم الحق بَرّاً بوالديه في الأحوال كلها، عاملاً على إسعادهما وإدخال السرور على قلبيهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي حدود طاعة الله عزّ وجل، لا يدخر وسعاً في تقديم ألوان البرّ والرعاية والإكرام لهما، من مأكل شهي، وملبس نفيس، وسكن مريح، وما يدخل في طوقه من صنوف الرفاهية المباحة المناسبة للعصر الذي يعيشان فيه، والمستوى الاجتماعي الذي هما عليه، وفوق ذلك كله: الكلمة الطيبة، والوجه الطّلْق المحيّا، الباسم الثغر، الفائض بالحب والحنان والوفاء والعرفان بالفضل لصاحبي الفضل الكبير، الوالدين.

---

(١) لقمان: ١٣.

ويمتد برّ المسلم الحق لوالديه إلى ما بعد وفاتهما، بالتصدّق عنهما، والإكثار من الدعاء لهما بمثل قوله تعالى:

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[1].

وبعد، فهذا هو هَدْي الإسلام في برّ الوالدين، وهذا هو المسلم الحق المهتدي به، فهل يتبعه المسلمون اليوم بعد أن غمرتهم الحياة المادّية، وأعشت أبصارهم أضواء المدنيّة الحديثة؟.

إن الاهتمام لَينصبُّ اليوم في حياتنا على الزوجة والأولاد. أما الوالدان، فالعناية بهما تأتي بعدهم، وقد لا يظفر باليسير منها الوالدان، إلّا إذا كان أولادهما من البررة الأتقياء.

ذلك أن النظم الاجتماعية الغربيّة الحديثة التي غزت عقول كثير من المسلمين، لا تحسب حساباً لبرّ الوالدين وحفظ شيخوختهما، وصونهما من الضّيعة والامتهان حين يردّان إلى أرذل العمر، وهذا ما جعل الرجل المطبوع بتلك المفاهيم والنظم لا يفكر إلّا بزوجه وأولاده، ولا يلتفت إلى الوراء قليلاً، ليلقي نظرة حبّ وبرّ ووفاء للجيل المدبر المولّي، الذي طالما سهر اللّيل في تربيته، وأنفق الغالي والرخيص في تنشئته وإعداده للحياة، فتراه إذا ما فكّر بالسكن المريح، والملبس الفاخر، والطعام الطيب، والرحلة الممتعة، التفت قلبه لزوجته وأولاده، ولم تَدُرْ في خَلَدِه خاطرة تذكّره بنصيب والديه من هذا النعيم، وإنهما لفي أمسّ الحاجة إليه، يتلقيانه من يد ولدهما الحبيب.

إن برّ الوالدين والإقبالَ عليهما بالقلب النابض بالحب، واليد المبسوطة بالبذل، وبالكلمة الطيبة المؤنسة، والبسمة المفترّة الوَدود، لَخَليقةٌ أصيلة من

---

(١) الإسراء: ٢٤.

خـلائق المسلمين. وما ينبغي للمسلمين أن تغيب فيهم هـذه الخليقـة، مهمـا تعقدت أمور الحياة، ومهما طرأ عليها من تطوّر، ومهما تجمّع فوقهـا من ركام العـادات المستـوردة؛ فهي من الخـلائق التي تحفـظهم من تحجّـر القلب، وتقيهم من أنـانيـة السلوك، وتـردّهم إلى أصـالتهم وإنسـانيتهم ووفـائهم، إذا ما تردّى غيرُهم في حضيض الأَثَرة والجحـود والكفران، وهي فـوق ذلك كله، تُفَتِّحُ لهم أبواب الجنان.